ت فيها الأصوات وذهبت فيها صرخات المفلوبين على آذان صبة الأمم كما تذهب زمجرة البحر الصاخب بين أجواز الفضاء

* * *

سيرة الرجل عبرة لا تنقضي ودروس لا تنفد . أولها : أن ليلسوف لن يسلم من لوثة الحكم والسياسة ولو أضمر الخير أسلف الجهاد الطويل فى قضايا المظالم والشكايا

وثانيها : أن الديمقراطية لا تسلم فى وطن تختلف أجناسه ولغاته ديانه وطبقات الحضارة فيه إلا على أساس « الولايات المتحدة » ى يستقل فيها كل فريق بالحكم والتشريع

وثالثها : أن أوربا الوسطى لا تزال كما كانت قبل الحرب بظمى غيلاً تصطرع فيه ضوارى الأحقاد ويوشك أن يندفع بالم مرة أخرى إلى حرب لا تؤمن لها عاقبة

وإننا على ما انتاب الديمقراطية من خيبة ، وما تعاورها من بض وتقويض ، لا نزال على إيمان وثيق بها أنها هى كهف السلام عقل بنى الانسان ، ومآل الحكم فى المستقل البعيد إن لم يعجل النصر فى مستقبل قريب

فالدول الديمقراطية لا تبغي الحرب كما تبغيها الدول الدكتاتورية، يطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة لا يخشى منها على سلام لم كما يخشى من إيطاليا وألمانيا واليابان والجمهوريات الروسية

ولقد يقال إن بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة تسالم الدول الأخريات لأنها شبعت من المستعمرات فلا حاجة إلى المشاكسة ولا إلى اقتحام المشكلات ، لكنه اعتراض يه فى ظاهره غير وجيه فى لبابه . إذ أن المسالة والاكتفاء سن جميع الدول الديمقراطية ولو لم تكن لها مستعمرات ولا أسواق مملوكة فى بلاد المستضعفين ؛ وهذه الدنمرك والسويد والنرويج وسويسرة لا تملك أرضاً وهى من اليسر والرواج فى حال يحسدها عليه المالكون ؛ وربما خلت من الجند والسلاح فليس بها إلا قليل من الشرطة وما يحتاجون إليه من أداة

إنما الحقيقة أن الدكتاتورية والحرب قرينان لا يفترقان ، لأن الدكتاتورية لا تقوم إلا على عسكرية ، والعسكرية لا تستقر طويلا بغير قتال ، ولا أمان للعالم كله إلا باتجاه سريع إلى الديمقراطية يقصيه من زبانية الاستبداد سواء كانوا من أهل اليمين أو من أهل الشمال

عباس محمود العقاد

الفنادق والمقاهي التاريخية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كما أن الآثار والأطلال والذكريات الباقية تستمد جلالها من الحوادث والمناسبات التاريخية التى ارتبطت بقيامها ، فكذلك تستمد جلالها من الزمن ؛ وقد يكون الزمن كل شيء فيما تنشح به الأطلال الدوارس أحياناً من روعة الخلود ؛ وأقدم الهيا كل والآثار هي بلا ريب أعرقها من هذه الناحية ؛ فالقديم مهما كانت ضآلته من الناحية التاريخية أو الفنية يبعث إلى النفس أثراً خاصا ويحملها إلى تلك العصور الذاهبة الذى يرجع إليها ويرتبط بها

فما بالك إذا كان هذا الأثر أو الصرح القديم لا يزال كسابق عهده يقوم بمهمته التى أنشئ لها منذ الأحقاب المتعاقبة ، ويمتلئ حياة وبهجة ، ويساير العصر ، ويربط الحاضر بالماضى بأوثق الصلات ؟

لسنا نريد أن نحدثك فى هذا المقال عن معاهد أو آثار تاريخية من هياكل أو صروح أو معاهد أو غيرها مما اصطلح على اعتباره آثاراً تاريخية تمتاز بقيمتها الفنية وبالمناسبات العظيمة التى أنشئت من أجلها ؛ ولكنا نريد أن نحدثك عن نوع آخر من هذه المنشآت التى قامت دون مناسبة تاريخية خاصة لتقوم بمهمة من مهام الحياة العادية ، ثم استطاعت أن تغالب صروف الزمن ، وأن تحمل رسالتها التواضعة خلال أحقاب وأحقاب ، وأن تبقى إلى اليوم قائمة بنفس مهمتها ، وأن تكتسب بذلك جلال القديم وروعته

نريد بذلك الفنادق والمقاهى التاريخية

إنه لمن الشائق حقا أن تنزل فى فندق ما ، أو تجلس فى مقهى أو مطعم ما ، فيقال لك إن هذا الفندق أو المطعم أو المقهى يرجع قيامه إلى أربعة قرون أو خمسة ، وإنه لا يزال كما نشأ باسمه وأوضاعه القائمة لم يتغير منه شيء إلا ما اقتضاه الزمن من أعمال الصيانة ، وإن كثيراً من الشخصيات التاريخية العظيمة قد مرت به قبلك ، ونزلت حيث تنزل أو جلست حيث تجلس . إن فى ذلك ما يذكى الخيال ويبعث إلى النفس جلالا خاصا هو جلال هذه الأحقاب الطويلة التى مرت بهذه النشأة المتواضعة ، وجلال تلك

الشخصيات التاريخية العظيمة التي ما زالت ذكرياتها وأشباحها تطوف بالمكان وتسبغ عليه من روعتها ما لم يسبغه التاريخ

ولقد آنست هذه المشاعر في كثير من المنشآت الاجتماعية التاريخية التي أتيحت لي زيارتها خلال تجوالي في العواصم الأوربية وآنستها هذا العام بنوع خاص خلال رحلة قمت بها في بلاد التيرول النمسوية : فذكرت أننا في مصر لا نعرف اليوم أمثال هذه المنشآت ، ليس فقط لأن أحداث الزمن لم تبق منها على شيء ، بل لأننا أيضاً فقدنا في عصور الانحطاط خلة الاستمرار ، فلا نعرف في مصر منشأة تجارية أو اجتماعية أو فندقاً أو مقهى أو غيرها من المنشآت المماثلة تخطت قرناً محافظة على قديمها ، متصلة بحديثها ، وهو ما يعتبر من الأمور العادية في العواصم الأوربية حيث يرجع كثير من هذه المنشآت إلى أحقاب وقرون . ولقد عرفنا هذه المنشآت في العصور الوسطى ، فكان للقاهرة فنادق ومقاهٍ ، تخطت دولا وعصوراً وهي تقوم بمهمتها الاجتماعية ؛ وإنه ليحضرني الآن منها مثلٌ هو فندق مسرور أو خان «مسرور» الذي يحدثنا عنه المقريزي في غير موضع ، والذي لبث عصوراً مهبط الواردين إلى القاهرة من كل صوب يتناقل السياح اسمه في جميع الأقطار الاسلامية ، والذي تذكره قصص ألف ليلة وليلة في مواضع مختلفة ترجع إلى عصور مختلفة كأنه علم على القاهرة ، وكانت القاهرة أيام السلاطين تموج بأمثال هذه المنشآت المعمرة من ربط وفنادق وخانات ووكالات شهيرة دثر معظمها أيام العصر التركي . وفي خطط المقريزي بيانات شائقة عن هذه المنشآت التي لعبت مدى عصور دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية المصرية .

أما اليوم فان القاهرة التي تغص بالآثار والصروح التاريخية العامة لا تعرف شيئاً من هذه المنشآت الخاصة التي يسبغ عليها القديم جلاله ، والتي تساير الحياة الاجتماعية في عصورها ومراحلها المتعاقبة

* * *

مما يلفت نظر السائح في مدينة أنزبروك عاصمة التيرول فندق « النسر الذهبي » Goldene Adler ، وهو صرح متواضع يقوم على صف من الحنايا المعقودة على الطراز القوطي ؛ ولكن هذا الصرح المتواضع يقوم حيث هو ، ويؤدي نفس مهمته في إيواء السياح وإطعامهم منذ نحو خمسمائة عام ، وفي مدينة انزبروك القديمة Alte Stadt التي تمتاز بدروبها الضيقة وأبنيتها القوطية العتيقة ، عدة من هذه الفنادق والمطاعم القديمة التي طوت أجيالاً عديدة من حياتها ؛ ولكن « النسر الذهبي » يمتاز عنها جميعاً بتاريخه المجيد ؛ فقد حفلت غرفه الضيقة وأبهاؤه المنخفضة التي لم يغير معاقب الزمن شيئاً من أوضاعها بكثير من الملوك والعظماء في مختلف العصور ؛ وقد وضعت على بابه لوحتان من الرخام نقشت عليهما أسماء هؤلاء الملوك والعظماء وتواريخ نزولهم فيه ؛ ولفت نظرنا بين هذا الثبت بنوع خاص اسم أمير تونس حيث نزل في فندق النسر الذهبي مع حاشيته في سنة ١٥٤٠م ، واسم يوهان فولفجانج فون جيته شاعر ألمانيا الأكبر حيث نزل فيه سنة ١٧٩٨م ، وأسماء عدة أخرى من ملوك أوربا وأمرائها نزلوا فيه في القرن السادس عشر أو السابع عشر أو الثامن عشر ؛ وإن الانسان ليتلو هذا الثبت التاريخي الحافل متأثراً ، وهو يرجع بذهنه إلى تلك التواريخ والعصور البعيدة فيأخذه شعور من الإجلال والروع لهذا القديم التالد الذي ما زال يمتلئ حياة ورغبة في مسايرة الزمن . ولقد كان مقام جيته في فندق « النسر الذهبي » حادثاً ذا أهمية خاصة خلدت ذكراه إلى يومنا باقامة مطعم باسم جيته إلى جانب الفندق ما زال مقصد الواردين من كل صوب ، يجذبهم اسم الشاعر وذكراه قبل أن تجذبهم الأطعمة الشهية التي يتناولونها ، وروح الشاعر ترفرف عليهم

وتوجد بالمدينة أيضاً عدة منشآت أخرى من فنادق ومطاعم وأبهاء للنبيذ Weinstude يرجع معظمها إلى قرنين أو ثلاثة قرون ومنها بهو النبيذ الشهير « أوتوبرج » الذي يرجع قيامه إلى نحو قرنين ، ولا زال حيث هو يشرف على نهر « إن » ويقوم بنفس مهمته في استقبال الآكلين والشاربين

وفي العاصمة النمسوية (ڤينا) جملة كبيرة من هذه الفنادق والمقاهي التاريخية التي قطعت قروناً من أعمارها ، وشهدت عصور الامبراطورية الزاهرة ، ولم تؤثر في حياتها أحداث الزمن ، ولا زالت تقوم في جنبات العاصمة النمسوية تسطع بالليل كأنها قطع من النور ؛ وهي تزهو جميعاً بماضيها كما تزهو بحاضرها . وقد يضيق بنا المقام إذا حاولنا هنا تعداد الأمثلة ، وربما أتيحت لنا بعد فرصة

أخرى للتحدث عن هذه المقاهي الشهيرة التي تلعب أكبر دور في الحياة الاجتماعية النمسوية، ولكننا نذكر سبيل التمثيل مثلين يلفتان النظر بحق: أولهما مطعم « لنده » Linde الشهير الذي يقوم حيث هو منذ أكثر من خمسمائة عام في شارع « البرج الأحمر »، (روتنتوم) والذي شهد حصار الترك الأول للعاصمة النمسوية سنة ١٥٧٠ م، واحتفل منذ حين بمرور خمسمائة عام على قيامه، ومن الشائق أن ترى تاريخ إنشائه منقوشاً على ما يقدم إليك من آنية الطعام، فيذكرك دائماً بعمره المديد وماضيه الحافل؛ والثاني مثل « منزل الطرب » Lusthaus الشهير في حي براتر، وقد أنشئ في أوائل القرن السادس عشر، ولا يزال يقوم حيث هو؛ وهو اليوم مطعم ومرقص، ولكنه كان من قبل منزل راحة ورياضة ملكيا؛ وقد بدأ حياته الجديدة من نحو قرن كان خلال القرن الماضي مسرحاً لعدة من الحوادث الاجتماعية الشهيرة، وكان بالأخص منتدى محبوباً للأرشيدوق رودلف فون هبسبرج ابن الامبراطور فرانز يوسف وولي عهده، يقصده مع صحبه لقضاء السهرات المرحة، ولا زالت ذكريات هذا الأمير المنكود الذي زهق في ريعان شبابه في ظروف غامضة، ماثلة في أذهان الجيل الأنيق تطوف بزائريه، وتذكرهم بالمأساة الشهيرة التي ترنت بمصرعه في يناير سنة ١٨٨٩ م

وفي معظم العواصم الأوربية نجد أمثال هذه المنشآت تذكر سائح التجول بالمناسبات والعصور التي قامت فيها، وتقدم إليه ائفة من الذكريات السابقة التي يلذ استعراضها وتأملها

* * *

وهـذه المنشآت الاجتماعية القديمة فضلا عن كونها تزين العواصم الجليلة، تلعب في الواقع دوراً عظيما في الحياة الاجتماعية الخارجية؛ وكثير منها يعتبر بحق نوعا من الآثار القيمة التي تجب المحافظة عليها لا من الوجهة الأثرية أو الفنية لأن معظمها يتطور ويتجدد من هذه الناحية مسايراً للعصر وللحياة، ولكن حرصا على قديمها وعلى تراثها من الذكريات القديمة التي امتزجت بحياة المدينة وحياة الشعب. ولا زلنا نذكر بهذه المناسبة تلك الضجة التي قامت منذ أعوام في الصحف الفرنسية بمناسبة هدم البناء القديم الذي كان يشغله المقهى الباريزي الشهير المسمى « بالطاحونة الحمراء » (مولان روج) عند ما أريد تجديد الشارع الذي يقوم فيه فقد ثارت الصحف يومئذ لهذا الإجراء وعز عليها أن يختفي هذا المقهى الشهير الذي امتزجت ذكرياته الساحرة بالحياة الباريزية الليلية حيناً من الدهر، وأصبح من أشهر المنتديات الاجتماعية التي تجذب كل زائر لباريس

وفي معظم الأحيان تقترن أسماء هذه المنشآت الاجتماعية القديمة بأسماء كثير من الشخصيات التاريخية، فنجد مقهى أو منتدى معيناً يؤمه كتاب العصر وشعراؤه، وفي هذا المقهى يجتمعون ويتسامرون، ويكتبون وينظمون، وفيه تتفتح مواهب الكثير منهم، وفيه يتألق نجم بعضهم وتسبغ أسماؤهم فيما بعد على المكان كثيراً من رنينها وشهرتها. فمثلا نجد اسم « المقهى الانكليزي » (كافيه أنجليه) الذي سطع في باريس في أواخر القرن الماضي يقترن بأسماء كثير من أعلام السياسة والتفكير والأدب في هذه الفترة، وفيه بزغ مجد الكثير منهم

والخلاصة أن الفنادق والمقاهي التاريخية تستحق أن تؤرخ كما تؤرخ الهياكل والصروح الأثرية، وإذا كانت الهياكل والصروح العظيمة تجد دائماً من يتصدى لدراستها وتاريخها من النواحي الأثرية والفنية، فان الفنادق والمقاهي تستحق أن تدرس من وجوه أخرى تمت بأكبر الصلات إلى تاريخ المجتمعات التي تقوم فيها، وتاريخ الأخلاق والعادات الشعبية، وهي وجوه لا تخفى أهميتها. ولقد قرأت منذ أعوام في إحدى الصحف الفرنسية عدة مقالات شائقة لأحد مشاهير الكتاب « حياة مقهى باريزي عظيم » فأعجبت بطرافتها وتلاوتها ووددت لو أننا نستطيع أن نقدم إلى قرائنا مثل هذه الصور الاجتماعية الساحرة. ورحم الله مؤرخنا الكبير تقي الدين المقريزي إذ فطن منذ خمسة قرون إلى أهمية هذه النواحي الاجتماعية في حياة الأمصار العظيمة فأنفق أعواماً طويلة من حياته في دراسة الأحياء والدروب والصروح والمعاهد والمنتديات الاجتماعية، وقدم إلينا في « خططه » مجموعة من الصور الاجتماعية والشعبية لمدينة القاهرة حتى عصره ولم ينس الفنادق والمقاهي التاريخية

(بادن فينا) في منتصف سبتمبر

محمد عبد الله عنان